

أهل الأديان يعترفون أن الذى بين أيديهم، كُتِبَ كُتَابُهُمْ مؤيدين بروح القدس أو كُتِبَ أَحْبَابُهُمْ بعد وفاه نبيهم بسنين، أو تكاملت أسفاره بعد قرون.

وهذا القرآن الذى أعجز الإنس والجن. ولا يزال الإعجاز والتحدى قائما، يسر الله حفظه حتى لأبناء المسلمين يتلونه حق تلاوته وتستقيم به ألسنتهم وتلين له القلوب. وهو النور الهادى فى الحياة، والنبع المتدفق بالخير والصراط المستقيم. هو الصاحب فى السفر والأنيس فى الوحدة، والدليل فى المسير. هو الظل من شمس الأيام وهو السراج فى ليلاها وهو الحصن من شرورها وهو السلاح أمام أعداء الحياة.. هذه الآفاق المتسعة التى جاء من أجلها الإسلام وشق طريقه أرادت قريش أن تحصرها مستعينة بأهل الكتاب على سؤال عن فتية غابوا فى القرون أو رجل طواف.. وأخبر الله رسوله بذلك.. ثم دعاه إلى متابعة مسيرته كما أرادها الله فى طريقها الواسع العالمى وعلمه أن يدعوه قائلا: ﴿ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴾.

٢٠ - ختام قصة الكهف

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ ﴿١٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾

وهذه الآيات هى تمام قصة الكهف، وسنرى فيما نستقبل من الآيات الربط بين القصة وواقع الحياة الإسلامية. أما هذه الآيات الخاتمة ففيها مسائل.

الأولى: مدة اللبث. ذهب بعض المفسرين إلى أن: "لبثوا" حكاية عما يقول أهل الكتاب. وبهذا يكون قوله تعالى: " قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا " تقويضا إلى الله فى علم ذلك كقوله: ﴿ قُلِ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ ﴾ وذهب آخرون إلى أن هذا إخبار من الله عن مدة لبثهم. ولقد جاء فى صدر الآية. ويكون قوله تعالى بعدها " قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا " قطعاً للمماراة فى مدة اللبث المختلف فيها بين أهل الكتاب أى أن الله أعلم منكم بمدة لبثهم وأنتم يا أهل الكتاب قد اختلفتم بينكم فى حساب المدة.

الثانية: قول الله تعالى ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا. فيها توجيه إلى منهج علمي في حل الخلافات: ثلاثمائة سنين شمسية، تساوى زمانا ثلاثمائة سنين وتسعا قمرية. فقبل أى بحث - ينبغى الاتفاق على القواعد والمقاييس.

وحتى لو قلتم بمدة دون ذلك وأنها مائتان وأربعون، أو أن المدة المقصودة هي بقاؤهم في الكهف بعد موتهم إلى زمن نزول الآية. فإن آية الله تبدو بطول اللبث عما تعودتم أن تروه، وأن يحسب اللبث بالأعوام والقرون بعد أن كان يحسب بالساعات في تقلب الإنسان اليومي بين النوم واليقظة.. لا تقفوا عند عددهم، ولا عند طول لبثهم وقفوا عند العبرة العميقة من القصة وهي الإيمان بالبعث والنشور، والتوجيه من العقيدة إلى العمل والإبداع في الحياة.

المسألة الثالثة: ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۗ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ۗ ﴾

ردوا العلم إلى الله إن اختلفتم • وخذوا بما جاءكم من عند الله بعد أن سألتهم، وأفاض الله على رسوله من علمه، فلا تماروا بعدما جاءكم من الحق فغيب السماوات والأرض لله - تبارك وتعالى -

(أبصر به وأسمع) صيغتا تعجب من عموم علمه تعالى بالغيبيات من المسموعات والمبصرات. هو الذى لا يشاركه فيه أحد.

المسألة الرابعة: ﴿ مَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۗ ﴾ وهذا الجزء من الآية قسمان: الأول حديث عن المشركين. والثانى قاعدة عامة وأصل تقوم عليه الحياة الدينية وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۗ ﴾

فهؤلاء المشركون ومن ساندتهم من أهل الكتاب، لو نظروا في حقيقة أمرهم لما وجدوا لهم ولياً حقيقياً من دون الله. وهذا التواصل بين مشركى مكة وأحبار يهود، والذى بدأت ملامحه في العهد المكي، وقويت وأصره في العهد المدنى، وبلغ ذروته في غزوة الأحزاب ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۗ ﴾ (الأحزاب: ١٠)

هذا التعاون بين المشركين من أهل مكة وقبائل اليهود في المدينة.. والذي يعلم فيه اليهود بيقين أن مشركى مكة عباد أوثان، ومع هذا نصرهم وناصرهم على الإسلام الداعى إلى التوحيد والمصدق بكل نبى ورسول.. هذا التعاون هو تولى شرك وجحود، لا يقف على أقدام أمام الحق الذى جاء به الإسلام.

ولقد أعلنها الله قوية: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ هو أحكم الحاكمين. هو الأحد الفرد الصمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد هو الحى القيوم. ما اتخذ صاحبة ولا ولدا. ولا يشرك في حكمه أحدا. فمن أين جئتم بالشركاء والأنبياء والبنات والأوثان والأنداد؟ من أين جئتم بعبادة من دون الله يحللون لكم ويحرمون، ويأمرون فتطيعون، وأنتم على الصراط السوي ناكبون.

إن أساس الإسلام هو التوحيد، هو تأصيل قوله الله تعالى ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ تأصيلها في كل مرافق الحياة الإسلامية الدينية.

نسأل أنفسنا: ما حكم الله في هذا الأمر؟ أمامنا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ — وقد فتح الله لنا باب الاجتهاد في دينه، بشروط وضحا علماءنا استمدوها من كتاب الله السنه النبوية. وبينوا آفاق الاجتهاد وشروط المجتهد وما ينبغى أن يتوافر فيه، وتطور هذه الشروط والأساليب والآفاق مع تطور الحياة.

ونحن حين نتبع هذا إنما نتبع أمر الله وحده. هو الذى أمرنا بالإيمان به ورسوله، وهو الذى دعانا إلى السير في الأرض، وهو الذى دعانا إلى سؤال أهل الذكر وإلى الاستتباط وإلى الجهاد والاجتهاد.

وهو الذى دعانا إلى إعمال الرأى في تعاون وحوار لنصل إلى القرار الأقرب للتقوى.

وبهذا نجد أن قصة الكهف إذا كانت قد بدأت بجوانب من أحداثها، إلا أنها ركزت في مطلعها وفي سياقها وفي خواتيمها على الركائز الأساسية للإسلام: عقيدة وشريعة وأخلاقاً، منهجاً وسلوكاً. وحذرتنا أن نساقي وراء دروب ضيقة من قصص أهل الكتاب. إذا هبطنا إلى أغوارها قطعنا أنفسنا عن أنوار السماء واتساع أفق الوحي وسرعة الحركة، في ميدان الحياة.. تماماً كما يدع السالك

الطريق السوى إلى أخاديد وأغوار وسرايب يضيع فيها بهاء الوحى. وتستهلك الطاقات في صراعات ضيقة لا تعود على الإسلام ولا على الناس بالنفع.

نعم: إن القرآن أجاب عن بعض الأسئلة، ولكنها إجابة؛ لتعرفنا عن هذا المنهج لا لتزيدنا إيغالا فيه..

من أجل ذلك، لم تأت بعد قصص هذه السورة، سورة أخرى مماثلة لها في وحدة طويلة تجمع هذا النسق كله. لا نقرأ هذا فيما نزل بعد هذا من القرآن في مكة أو المدينة، قد تأتي قصص قصيرة فيها جوانب من هذا الإعجاز كما في سورة البقرة مثلا - ولكنها جاءت لتخدم هدفاً قرآنياً محدداً، دون أن تكون ثمرة حوار جديد بين المسلمين وأهل الكتاب أو تحدياً معرفياً كما جاء في سورة الكهف، أو تأصيلاً لمنهج جديد. فالمنهج في هذه السورة قد تأصل، في أكثر من موضع فيها كما رأينا وكما سنرى إن شاء الله.

ولقد انعكس هذا على التفكير الإسلامى، أولاً في الدراسات الخاصة بالإسلام، وثانياً في الدراسات المقارنة بين الإسلام والعقائد الأخرى وبدا هذا في أمور نود أن نجمها فيما يلى:

١- أن ما قبل الإسلام تراث إنسانى، علينا أن نستفيد مما فيه من العبر والقرآن يلفتنا إلى السير في الأرض والبحث في التاريخ

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (الروم: ٤٢)
وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۗ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك ١٥) وبهذا اتسع الفكر الإسلامى زماناً ومكاناً وموضوعاً.

٢- أن المسلمين نظروا إلى هذا التراث الإنسانى في نظرة ناقدة فاحصة لم يقبلوا عليه بتسليم أو رفض. وإنما عرضوه على محك العقيدة إن كان ديناً وعلى محك العقل والملاحظة والتجربة إن كان من أمور الدنيا. والله تعالى يعلمنا فيقول مخاطباً رسوله والمؤمنين من بعده ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦)

وبهذا نستطيع أن نفسر مدى إقبالهم وأسلوب إقبالهم على تراث الهند والفرس واليونان والرومان

٣- أنهم أبدعوا لأنفسهم علومهم التي ينقدون بها حتى متون الحديث النبوى وأسانيدھا وكانت لهم لغتهم العلمية المتميزة واصطلاحاتهم التي أثروا بها التراث الإنساني كله. وهذا من أهم إضافات الحضارة الإسلامية إلى الحضارة الإنسانية في شمولها.

٤- أن المسلمين جمعوا في العلم بين دقة المنهج والمستوى الأخلاقى الذى يزنون به الأفكار والناس ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوْاۗ أَعْدِلُوْاۗ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ٨).

٢١- العقيدة والمجتمع

﴿ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ (٤) وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿

أود أن نقف عند هذه الآيات وقفة تأمل.. فهي بدء مرحلة جديدة في سورة الكهف، سبقتها مرحلتان هما مقدمة السورة وتبين أهدافها العامة ثم قصة الكهف والرقيم وما تخللها من منهج وتوجيه وحوار وحقائق. وأمامنا الآن رحلة مع هذه الآيات حتى نصل إلى قصة موسى والخضر. وتضم الآيات من السابعة والعشرين إلى التاسعة والخمسين.

هذه المرحلة الثالثة فيها انتقال من قصة الكهف إلى واقع الحياة الإسلامية في مكة وتمهيد لبناء المجتمع الإسلامى في المدينة. ويأتى هذا بتحديد المنهج والعناصر البشرية التي تستطيع أن تحمل تبعاته. ووصف لما أعد الله لعباده المؤمنين من طيب الجزاء وما أعد للظالمين من العذاب وضرب الله لهذا مثلين هما قصة صاحب الجنتين أو الصاحبين والجننتين. ومثلا آخر لهذه الدنيا وثيق الصلة بمدخل السورة.. ثم يذكرنا ربنا بقصة الخلق وأبيننا الأول، وفيها ثنائية أخرى:

الخير والطاعة، والعصيان التمرد. آدم، الملائكة، إبليس، وعودة إلى التذكير بالحساب والعقاب، وتأكيد على اتباع القرآن الكريم وتحذير من الإعراض عنه، ثم تذكير بمغفرة الله ورحمته وبالوعد الحق ﴿مَوْعِدٌ لَّنْ تَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾.

هذا هو الإطار العام.. العبر بين القصتين: الكهف وموسى وبينها مثلان: صاحب الجنتين ومثل الدنيا، وهذا المعبر ليس مجرد وصل بين قصص، وإنما هو توجيه أساسى في بناء الفرد والمجتمع الإسلامى.. فلننتقل من العرض العام إلى الآيات التى نحن بين يديها.

يقول الله تعالى: ﴿وَأْتَلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ^ط لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً﴾ فهذا أمر أول: اتل ما أوحى إليك.

ثم يأتى الأمر الثانى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾

فهذان أمران أولهما متعلق بالكتاب: القرآن: قراءة واتباعا، والثانى متعلق بالمجتمع إزاء وتماسكا: بين القائد والصحابة، وبين الصحابة فيما بينهم، وبينهم جميعا وبين القرآن الكريم.

وبعد الأمرين يأتى نهيان: أما الأول فقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

وأما الثانى فقولته تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ وفى النهى الثانى تبدو صفات المشركين والظالمين، وهى ثلاث أساسية: (١) "أغفلنا قلبه عن ذكرنا"، (٢) "اتباع هواه"، (٣) "وكان أمره فرطاً": الغفلة والهوى والضياع.

والآيتان تجمعان بهذا بين أمرين ونهيين وثلاث صفات للضالين.

ولنبداً بالمجموعة الأولى: القرآن والمجتمع ؛ القانون الإلهي والناس وتحس وأنت
تقرأ الأمرين بالتحديد الواضح، واستواء الطريق أمامك. وتأمل قول الله تعالى:
﴿ وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ ولقد تعلمنا من أصحاب المصطفى ﷺ
مفهوم التلاوة عندهم: فهي قول وعمل. فهم وتصديق واتباع ربط وثيق بين كلمة
الله وتنفيذها.

الخطاب موجه أولاً إلى الرسول ﷺ والمؤمنون بالقرآن من بعده ﴿ لَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَاتِهِ ﴾ وكلماته وما فيه من عقيدة وشريعة وقصص وأخلاق ودعوة إلى
إعمال العقل وعمارة الحياة بالعمل الصالح وحماية العقيدة والمجتمع داخليا
وخارجيا..

﴿ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾: أى لن تجد من دونه ملجأ في البيان والإرشاد.
وبهذا صرفه عن ممارسة المشركين وأهل الكتاب والتمسك بكلمات الله، ومعية
الله في كل أمر.. فمن وجد الله لم يفقد شيئاً. ومن فقد الله لم يجد شيئاً. هو
سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

ويأتى الأمر الثانى متعلقا بالمجتمع ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ
بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ وليس المقصود من ذلك العكوف في الغداة
والعشى في المساجد دون عمل، أو الانصراف عن عمران الحياة بالعمل الصالح
فدعاء الله هو بكل عمل صالح وجهد صالح. إن الطالب المخلص في طلب العلم،
والعامل المخلص في انتاجه. والباحث المخلص في معمله وتجاربه والجندي المخلص
في تدريبه واستعداده، ورجل الأمن المخلص في حفظ النفوس والأعراض.. كل
أولئك يدعون ربهم. دعوة الله ليست مجرد كلمة على أطراف الألسنة، أو مجرد
رفع الأكف بالدعاء، ولكنها بالعمل المبدع إذا قصدنا به وجه الله وخير النفس
والناس.. كل هذا دعاء وعبادة.

ولماذا خص بالدعاء الغداة والعشى؟. المقصود الاستمرار في الغداة وهو
الصباح. هو الانطلاق من راحة الليل إلى مسئولية النهار، والعشى هو العودة من
مسئولية النهار إلى السكن. والعكس صحيح لمن تحمله مسئولياته على العمل

ليلا والراحة نهارا. إنها تحديد أوقات الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أو من مسئولية إلى مسئولية.

وهي تتصرف إلى المنقطعين في سبيل الله لا يجدون حيلة إلا الاعتكاف حتى يفتح الله لهم من الرزق والعمل باباً.

كان المقصود الأول منها فقراء الصحابة، الذين أقبلوا على الإسلام فحاربهم أهلهم والمجتمع في أرزاقهم، والمستضعفين الذين عدا عليهم أغنياء قومهم حتى فداهم القادرون من الصحابة كأبي بكر وعبد الرحمن بن عوف بأموالهم.. كانوا فقراء لا يكادون يجدون ما يستر أبدانهم. أجسام ضعيفة من الجوع والفقر، وقلوب ملؤها الإيمان بالله تعالى.

ولقد حاول أغنياء قريش التأثير على المصطفى ﷺ من هذه الناحية، وأخبروه أنهم لا يغشون مجلسه لمن فيه من الفقراء والضعفاء بثيابهم الزرية وأوضاعهم الاجتماعية. فأكد الله تعالى للنبي أن هؤلاء الضعفاء هم الأقرب إلى الله بإيمانهم، وهم الأثقل في ميزانه في الدنيا والآخرة. ونلاحظ أن الله وصف هؤلاء بصفات عقائدية وأخلاقية مفتوحة الأبواب لكل مؤمن: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي إنسان مهما يكن وضعه الاجتماعي أو الاقتصادي ودعا ربه وأراد وجهه، كان على المصطفى ﷺ أن يصبر نفسه معه.. ولم يقل الله له: واصبر مع الذين يدعون ربهم. وإنما قال: ((واصبر نفسك)) في مزيد من التأكيد نفسك من الداخل. قلبك يا محمد يكون مع هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه.

وننتقل بعد هذا إلى النهيين: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا﴾

فكلما صبرت نفسك معهم، اجعل عينك عليهم ومعهم حباً وإخاء فأنت يا محمد بالمؤمنين رءوف رحيم. ولا تعد عينك عنهم. لا يمتد نظرك إلى من وراءهم من أغنياء قريش. إنهم مجرد زينة الحياة الدنيا. أجسام وثياب ومنظر خشب مسندة. مظهر دون مخبر. فاجعل المؤمنين قرة عينك، احبس عليهم نظرك كما حبست عليهم نفسك. إنهم معدن الإيمان والإسلام وعدتك ليوم الإسلام وغده.

وبنائه وجهاده. وبهذا يتأصل التماسك القوى بين القيادة والقاعدة وفيما بين القاعدة وبين الجميع والمنهج الربانى الذى جاء به القرآن.. لامبديل لكلماته ولن تجد من دونه ملتجداً..

ويأتى النهى الثانى والأخير يحمل معه الصفات الثلاث للضالين: ﴿ وَلَا تَطْعَ مَنْ أَعْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ لا تطع هؤلاء الأغنياء في إبعاد الضعفاء. وصارحهم بما جاء به القرآن وأنت له متبع.. أما هؤلاء الضالون ففيهم صفات ثلاث: قلوب غافلة عن الحق صرفها متاع الدنيا وزينتها عن الفكر العميق المؤدى إلى الإيمان، واتباع الهوى ومظهريات الحياة وتراث الأجداد وإن كان باطلاً، مواريث الجاهلية أو وجود أهل الكتاب.. فماذا كانت النتيجة.. وكان أمره فرطاً.. لاضابط له.. وتصور - كمثل - مسبحة نزعتم منها سلكها.. وانتشرت حباتها.. كل حبة في اتجاه.. هكذا مصير الفكر والقلب.. إذا توزعته الشهوات والأهواء.. قارن هذا الأمر الفرط بالدقة الدقيقة والصراط السوى الذى تجده في صدر الآية الكريمة:

﴿ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾.

وصدق الله العظيم: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ ؕ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

٢٢- ثنائيات في سورة الكهف

يقول الله تعالى:

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ؕ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ؕ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا سُرَادِقُهَا ؕ وَإِنْ يَسْتَعِثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ؕ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿١٩﴾ ﴾

أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الْأَثْوَابِ وَحَسَنَتِ مَرْتَفَعًا ﴿

هذه آيات ثلاث: واحدة في وصف الظالمين، واثنان في وصف المؤمنين. الوصف الأول ينتهى بقول الله: وساءت مرتفقا، والوصف الثانى ينتهى بقوله: وحسنت مرتفقا. المقابلة واضحة بين الظلم والإيمان، والسوء والحسن. وكلمة "مرتفقا" ختام كل من الوصفين. فأمامنا مقابلة هى الرابعة حتى الآن فى سورة الكهف، والتي تبرز فيها هذه الثنائيات:

- ١- فى صدر السورة مقابلة بين المؤمنين وبين الذين قالوا اتخذ الله ولدا.
- ٢- وتأتى قصة الكهف وفيها المقابلة بين المؤمنين والذين اتخذوا من دون الله آلهة.
- ٣- وتنتهى القصة لنرى ثنائية ثالثة: بين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجه الله وبين أصحاب القلوب الغافلة واتباع الهوى الذين انفرط أمرهم.
- ٤- ثم تاتى الثنائية الرابعة، وهى ثنائية ممتدة فيها وصفان وأول كل وصف عمل فى الدنيا وآخره جزاء فى الآخرة.

وستتوالى فى السورة ثنائيات أخرى.. فبعد هذه الرابعة تاتى ثنائية خامسة مباشرة مطلعها قول الله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾.

ذكرت هذه النماذج الخمسة المتوالية لأبين جانبا من نسيج سورة الكهف، وأنا نجد فيها خيوطاً ممتدة من أولها إلى آخرها. السورة كلها وحدة، تستطيع أن تتبعها فى ثنائياتها، وتستطيع أن تتبع الإيمان فى آفاق ظهوره عملا فى الدنيا وجزاء فى الآخرة وتستطيع أن تتبع الظلم والكفران فى آفاق ظهوره: كيف يتسرب أولا إلى النفس، وكيف يعيش فيها. ويفرخ ويتكاثر وما أثره فى دنيا الناس، ما جزاؤه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وتستطيع، وأنت تعيش مع خط الإيمان فى السورة، أن ترى امتدادها عبر الزمان والمكان، فتزداد بالإيمان ألفة ومودة، وبالمؤمنين صداقة وحباً، وتحس - وأنت على طريق الإيمان - أنك لست وحدك، ولست فى قلة، ولا فى طريق مسدود. طريق الإيمان مفتوح مع بدء الحياة. وسنأتى إشارات إلى قصة آدم فى سورة

الكهف. والصراع بين الإيمان والجحود قديم.. أول قصصه ما كان بين آدم وإبليس، وأن إبليس قبل أن يغوى آدم، كان قد فسق عن أمر ربه فنصحه لآدم مردود عليه. فوسوسته له ولأبنائه هي الخطر الكبير. ولازال. وتتعاقب الثنائيات: أمثلة وقصصاً وأزواجاً.. ومع هذا الفيض من علم الله نقرأ في خواتيم السورة: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾

وبعد هذه الرحلة السريعة في السورة نعود إلى الثنائية التي أمامنا والتي تبدأ بقول الله: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

قل لمن؟ إن نظم الآية الكريمة يحتمل وجوها، نصاحب في عرضها ما ذكره الإمام الفخر الرازي في تفسيره:

الأول: أنه تعالى لما أمر رسوله بأن لا يلتفت إلى أولئك الأغنياء الذين قالوا: إن طردت الفقراء آمننا بك، قال بعده: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي: قل لهؤلاء إن هذا الدين الحق إنما أتى من عند الله، فإن قبلتموه عاد النفع إليكم إن لم تقبلوه عاد الضرر إليكم، ولا تعلق لذلك بالفقر والغنى، والقيح والحسن والخمول والشهرة.

الوجه الثاني: يمكن أن يكون المراد أن الحق ما جاء من عند الله. والحق الذي جاءني من عنده، أن أصبر نفسي مع هؤلاء الفقراء، ولا أطردهم، ولا ألتفت إلى الرؤساء وأهل الدنيا.

الوجه الثالث: أن يكون المراد أن الله تعالى لم يأذن في طرد من آمن وعمل صالحاً، لأجل أن يدخل في الإيمان جمع من الكفار. فإن قيل: أليس أن العقل يقتضى ترجيح الأهم على المهم؟ فطرد أولئك الفقراء لا يوجب إلا سقوط حرمتهم، وهذا ضرر قليل. أما عدم طردهم فإنه يوجب بقاء الكفار على الكفر، وهذا ضرر عظيم، قلنا: أما عدم طردهم فإنه يوجب بقاء الكفار على الكفر فمُسَلَّم، إلا أن من ترك الإيمان لأجل الحذر من مجالسة الفقراء فإيمانه ليس بإيمان، بل هو نفاق قبيح، فوجب على العاقل أن لا يلتفت إلى إيمان مَنْ هذا حاله وصفته: اهـ

وبهذا شرع الإسلام من أول الأمر - نظرياً وعملياً - المساواة بين الناس في أمر الإيمان، وحفظ كراماتهم. فمن أقبل على الإسلام، فله كرامة الإسلام غنياً كان أو فقيراً، من سادة الناس أو من عامتهم وسوادهم. وجاء تطبيق ذلك في مرافق الحياة الإسلامية جميعاً.. أقربها بيت الله. يجلس في الصف الأول من جاء مبكراً، ولا علاقة لهذا بغنى أو فقير. ليس صفوف المسجد الأولى للأغنياء وأوسطها لأواسط الناس وآخرها لفقرائهم.

كذلك مجالس العلم، أقرب الناس مجلساً إلى العالم من جاء مبكراً، وتوسع من حوله الحلقة دون تخطى أعناق الناس واختراق صفوفهم والجلوس في سماحة وأخوة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ فَأَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: ١١).

وانشزوا: قوموا بعد انتهاء الدرس. ففي المجلس أدب جلوس وأدب قيام لا علاقة لهما بأى وضع اجتماعى أو اقتصادى

وتبلغ هذه المساواة ذروتها في موسم الحج، حين نتجرد من ثياب هى بين الناس - أو كثير من الناس - شارة تميز، وبيان لوضع اجتماعى أو اقتصادى ونرتدى جميعاً ثياب الإحرام. والإحرام حرمة الإنسان: دمه وعرضه وماله وكرامته. حرمة الإخاء الداعى إلى المساواة، وتحس في المطاف أنك نقطة من هذا النهر الطواف حول الكعبة.. تتحول نفس الدائرة إلى مستطيل في السعى إلى نهرين هما نهر واحد.. يختلفان في الاتجاه ويتحدان في القصد، ثم أنتم جميعاً في عرفات ضيوف الرحمن، أيديكم مرفوعة بالدعاء للواحد الأحد هنا يجمعكم الزمان والمكان والإحرام، ويجمعكم الخضوع للرحمن هنا الولادة الجديدة.. هنا التجدد: تجدد الإخاء والمساواة.. في عرفات اعرف نفسك، وفى الشهر الحرام أشعر قلبك ووجودك في هدوء ليل تضيئه النجوم والقمر. هذه المعانى النبيلة، وفى منى حول هذه المعرفة وهذا الشعور إلى حب وتعبير عملى.. رجماً للشيطان وطاعة للرحمن وإطعاماً للبائس الفقير.. ويأخذ إخاؤك صورته العملية تعبيراً عن حب الخير وكراهية الشر..

الإسلام كله إخاء ومساواة، إخاء ترتفع به العقيدة وأداء المناسك إلى أن يصبح جزءاً من نسيج حياتك. بل يصبح هو الإيمان أهم معالم حياتك: وما الإسلام؟ إنه توحيد الله ووحدة المجتمع. ومن الوحدة والتوحيد تنطلق إلى بناء الحياة خذ الإسلام من أى زاوية شئت.. اقترب إليه من أى فج عميق، ستجد كعبة التوحيد، والمؤمنون من حولها رموز المساواة عقيدة وسلوكاً.. حتى الزكاة: هى مقارنة بين القادر وغير القادر، حتى الصوم أساسه المساواة.. ولا يباح فيه الإفطار إلا بشروط صحية أو طوارئ حياة حددها علماءنا للرجال وللنساء.. للشباب والشيوخ و في غير هذه الطوارئ.. كلنا سواء، نتحرك أول الشهر بحركة القمر، وفى أثناء الشهر بحركة الشمس و في ختام الشهر مع القمر كأننا كون في الكون يتسق مع حركة الوجود..

لا يا كفار مكة.. ولا يا من تسيرون على دربهم، وإن حملتهم من الإسلام أسماء وشارات.. إن الإسلام إخاء وكرامة، لا يذاد فيه فقير لفقره عن مجلس أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام. إنه مجلس الإيمان، وبطاقة دخولك إليه أن تكون مؤمناً أو راغباً في الإيمان، أو محترماً لإرادة الإيمان.

أرأيت كيف تحددت معالم الإسلام الكبرى من أول أمره: الإيمان وكرامة الإنسان. وقول الله تعالى ينير لنا الطريق: **وقل الحق من ربكم.**

٢٣- فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

بعد أن بين الله لنا بأكثر من مثال طريق الحق قال تعالى: ﴿ **وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۗ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ** ۗ ﴾

وهذا التخيير تحذير من الكفر ودعوة إلى الإيمان في هذه الآية ينسب المشيئة إلى الإنسان: **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.**

وفى آيات أخرى تأتي المشيئة منسوبة إلى الله: ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ** ۗ ﴾.

وفى آيات أخرى تأتي إرادة الإنسان مرتبطة بمشيئة الله ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ**

إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۗ ﴾

ومرة يأتي الفعل منسوباً إلى الله (لا مجرد المشيئة) مثل قوله تعالى: ﴿ حَتَّمْ
اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾
(البقرة: ٧).

هذا بعد أن نسب الفعل إليهم في الآية السابقة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ
عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة: ٦) ولقد أطال علمائنا القول
في أمر المشيئة. والأقوال والمذاهب فيها متعددة. ولا أظن - ولا أريد أن أضيف
جديداً أو أفتح حواراً في أمر طال فيه القول. وليس منا أحد إلا سأل نفسه مرات
عن سر القدر وحدود قدراته في هذه الحياة، وما أرادته الله له ومنه.

والشباب بخاصتهم والمقبلون على الدين بأخص، يشغلهم موضوع المشيئة..

أما الكثير من أهل الغرب، فقد طرحوا الموضوع من أذهانهم. ألقاهم في
المؤتمرات الدولية، وقد تسنح فرص للحديث في أمر الدين والألوهية والتقدم
العلمي. وهم قوم لهم حياتهم واهتماماتهم. وأود أن أذكر في هذا الحديث ثلاثة
صنوف في هذا الأمر، ثانيهم أقرب إلينا من الأول..

أما الصنف الأول، الغالب في الغرب، فقد جعلوا الإنسان محور الحياة
والكون. البحوث والاهتمامات تبدأ منه وتنتهي إليه. الآخرة عندهم جذبوها إلى
الدنيا. فالدنيا عندهم هي الدنيا والآخرة. هي العمل والجزاء والثواب والعقاب لا
يمدون أنظارهم إلى ما وراء هذه الحياة، إلا قليلاً. جاءوا من التراب وإلى التراب
يعودون. والقليل القليل عن وصف الآخرة والحساب تجده حتى في كتب دينهم أو
في عظاتهم. ولقد أرجع الأستاذ أرنولد تويني المؤرخ العالمي وهو من أعظم مؤرخي
القرن العشرين أرجع هذا العالم الكبير تقشى الانتحار في العالم الغربي إلى هذا
الاتجاه الفكري أنه عملياً - لا آخرة ولا إيمان بها عند القوم - أما الذين يؤمنون
بعمقيدة الآخرة وبالبعث والنشور فالانتحار عندهم محدود حين يقارن بالاتجاه
السائد في الغرب. ذلك لأن الآخرة امتداد وعدل وأمل.. وراء هذه الحياة حياة، أما
في الغرب فوراء الحياة فناء ومن هنا جاء اندفاعهم العنيف إلى ملذات الحياة كما
جاء احتفالهم الكبير بالتقدم فيها والتفوق. فهي ولا شيء وراءها.. هكذا يؤمنون.
وجعلوا التحدي هو تحدي التقدم. التحدي العلمي. التفوق. الابتكار وأسلوب
التنافس والصراع المحموم والفردية التي تصل إلى حد الشراسة في معاملة الخصوم

أو الضعاف. والمجتمع العالمى أصبح معسكرات تحميها أسلحتها. الدولة بقوة سلاحها. المعسكر بقوة سلاحه. والتفوق والحرب دائرة عملياً في المعامل ومراكز البحوث. ابتكار يقتل ابتكار. وسلاح يتفوق على سلاح. وحرب الأرض انتقلت إلى حرب النجوم.

نتقل إلى اتجاه آخر يحاول أن يجمع بين الأخلاقيات والتفوق العلمى. إنسانيات هذا الاتجاه لا تجدها - في الأغلب - عند رؤساء دولهم إلا بعد أن يتركوا السلطان والمسئولية. أما وهم في سلطانهم فلا حديث إلا عن القوة والردع والتفوق. ومن دون الدول الكبرى يدورون في فلكتها راضين أو مجبرين أو إلى حين.

وأذكر حديثاً مع مسئول منهم أن قال: إن التقدم العلمى قوة لاشك فيها ولكنها المارد الذى لا عقل له. لقد سيطرنا على طاقة هى قادرة على تدميرنا ومع النمو العلمى نعانى من ضمور في أخلاقيات التعامل العالمى. ارتبط القول بالأخلاق بالضعفاء. أما الأغنياء فسندهم هو القوة.

فهل يستطيع أصحاب الأديان أن يتقدموا إلى الإنسانية. بميثاق أخلاقى؟ وأذكر تعقيباً لمسئول آخر أن قال: هذا حديث يقال عند المقابر وفى المعابد ولا يقال في ساحات السياسة وهى الصورة الأهدأ من ساحات الصراع ومن ورائها قاعات الأسلحة ومن ورائها ميادين القتال.

وانتقل إلى الاتجاه الثالث وهم أصحاب الأديان الذين يبدعون من ((الله)) لا من "الإنسان" يبدعون من الله إيماناً به: خالقاً للإنسان، باعناً الرسل، منزلاً الكتاب، تقرأ في أول كتابه: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝﴾

الله الذى أكرم عباده أولاً بنعمة الوجود وجعلهم خلفاءه في أرضه، والإنسان هو المخلوق الوحيد الذى له تاريخ.. هو كائن قادر على ربط الماضى والحاضر والتخطيط للمستقبل. وهو الكائن الوحيد القادر على حرية الإرادة وتسجيل هذه الحرية وتطويرها ونقل تجاربها. وحياته تفاعل بين توجيهات ربانية وجهود إنسانية. وأقصد بإنسانية: تجاربه وتجارب الآخرين الذين يقتربون أو يبتعدون عنه في الزمان والمكان.

هذا هو الإنسان

أما الله فقد عرفنا بذاته وصفاته في كتابه وعلى لسان أنبيائه ورسله، هو المتصف بكل كمال، المنزه عن كل نقص. ومن كمال الله كمال علمه، علم يستوى فيه ما نقول عنه نحن أنه الماضي أو الحاضر أو المستقبل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد: ٣) المستقبل في علم الله - كما نحدده نحن - يستوي مع الماضي. فعلم الله لا يزيد بالزمن، ولا تُضاف إليه معلومات مما يحدث منا، ولا ما تنتهي إليه إرداتنا الحرة.

هذا العلم المطلق لا يقيّد حرية إرادتنا. والله تبارك وتعالى المحيط بكل شيء يعلم ما تنتهي إليه إراداتنا. هذه صفة كمال لله وليست صفة جبر ولا قسر.

وأنت تحس هذه الحرية. ولكن لها حدود. حدود من القدرة البدنية والقدرة الفكرية والعصبية. حدود من التناسب الخلقى والخلقى. حدود من الوضع الاجتماعى أو المورد الاقتصادى.

ولن يسألك الله عن أمر هو خارج حدود قدرتك ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦). وقد رسم لك دائرة إمكانات تتحرك فيها، وفى حدودها يكون حسابك. حسابك كفرد ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾. (مريم: ٩٥).

حسابك في أمور ينبغي فيها التعاون مع غيرك. ولا تقوم الحياة إلا بالتعاون فيها. ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢) ومثل قوله تعالى في الدفاع عن المجتمع: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٦٠).

والله يحاسبك على مدى ما أفدت من قدراتك، والمواهب التى أعطها لك فرق بين حساب الذكى الموهوب والخامل المحدود، فرق بين حساب من كان على خزائن الأرض ومن قدر عليه رزقه، فرق بين حساب من آتاه بسطة في العلم

والجسم وبين المستضعفين في الأرض. كل أولئك محسوب دقيق. والله تعالى يقول: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

وأعتقد بهذا تتحدد الأبعاد الأساسية في قضية المشيئة. والملاحظ أن الإنسان لا يتجه إلى البحث فيها - في أكثر الأحوال - إلا إذا كان راغباً في التهرب من مسئولية أو إلقاء العبء على غيره، أو كان مغلوباً على أمره.

أما الناجح والمنتصر فهو أكثر الناس إحساساً بحرية إرادته. وهو إذا كان مؤمناً، كان أكثر الناس إحساساً بفضل الله عليه إذ رضيه أهلاً للنجاح والانتصار.

وأذكر هنا كلمة عميقة لفيلسوف الإسلام محمد إقبال يقول فيها "إن المؤمن الضعيف يحتج بقدر الله. أما المؤمن القوي فهو قدر الله ينفذ الله به مشيئته"، وقد تناول إقبال موضوع المشيئة تحليلاً علمياً في كتابه. "تجديد الفكر الديني في الإسلام" وتناولها أدبياً في أكثر من كتاب من كتبه أذكر منها "أسراري خودي"، "أسرار الذات". ورموز بي خودي ((رموز الذات)) أحدهما عن الفرد والثاني عن الجماعة الاثنان عن الإيجابية في مواقف الحياة، ثم بلغ الذروة في المقارنة بين المواقف الإنسانية من حرية الإرادة الإنسانية في حدود المشيئة الإلهية في أهم كتبه "رسالة الخلود" أو "جاويد تامه" وجاويد معناها الخلود. وهو في نفس الوقت اسم ولده، وتامة معناها كتاب.

وننتقل بعد هذا إلى عرض الثنائية الرابعة بعد هذا المدخل عن الحق والإرادة

٢٤- الظالمون والمؤمنون

بعد أن وصف الله تعالى الكفر والإيمان، والباطل والحق، أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والأعمال الباطلة، ويذكر الوعد على الإيمان والعمل الصالح^(١) ولنبدأ بالوعيد كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ١١: ١٢١

نَارًا أَحَاطَ بِهِنَّ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ
بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٤٠﴾

ونبدأ بالمعاني اللغوية لكلمات الآية: السرادق هو الحِجْزة تكون حول الخيمة تحيط بها من كل جهاتها. المهل: ضرب من القطران أو صهير المعادن. والمرتقة: المنزل أو ملتقى الرفقاء.

وهذا مشهد عذاب نستعيد بالله منه ونسأله سبحانه أن يجعلنا من عبید إحسانه، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك ولا أكثر.

وعند كتابة هذه السطور طافت بذهني ذكريات النشأة الأولى والبيت قريب من المسجد. وكان من عادة المؤذنين في بعض مساجد الإسكندرية قبل صلاة الفجر أن يتوسلوا إلى الله تعالى بالدعاء. وكانوا ينشدون بعض الأشعار بصوت فيه إنابة وتوجه إلى الله وحنين.. واستعاذة من النار وسؤال الله الجنة والمبادرة إلى التوبة.. ووقر في نفسي من قديم قولهم (الآبيات للأمام الشافعي رضى الله عنه):

ولما قسا قلبى وضافت مذاهبى
تعاضمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك
فلازلت ذا عفو عن الذنب
وقوله:

إلهى لست للفردوس أهلا
فهب لى توبة واغفر ذنوبى
ولا أقوى على نار الجحيم
فإنك غافر الذنب العظيم
فإذا ذكرنا وصف النار في كتاب الله تعالى فهي نذير للعصاة أن يتوبوا ونذير للمؤمنين أن يزدادوا عن طريق الشر ابتعاداً.

ووصف الجنة من بعدها ترغيب للعصاة أن يتوبوا ويتخذوا إليها سبيلاً وللمؤمنين أن يزدادوا استمساكاً بالحق الذى بأمره يعملون، وعلى صراطه يسيرون.

وصف النار في القرآن من مظاهر رحمة الله تعالى. فهناك نفوس يكفى لكى تتجه إلى الخير أن تحس حلاوته. يكفى أن يأمر به الله وهناك نفوس تقبل

على الخير خشية النار والعذاب. والإسلام يجمع هذه الجوانب جميعاً. والله سبحانه وصف المؤمنين - بل صفوة من المؤمنين بقوله:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حَمَزُوا سَجْدًا وَاسْبَحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ (السجدة: ١٥ - ١٨).

ولقد وصف الله تعالى المؤمنين في موضع آخر في كتابه فقال: ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٣﴾ (الزمر: ٢٣).

فوصف النار كما جاء في كتاب الله تحذير. هو مظهر رحمة يسعد به المؤمن ويلقاه الظالم.. ولكن كيف يصل إليه؟ هنا لنا الوقفة تصور هذا الظالم يسير في طريق.. يمر على آيات الله في الأنفس والآفاق فلا يلتفت إليها أو يراها ثم ينصرف عنها. ويتابع سيره. فتعرض له أحكام الله وحدوده، فلا ينفذ حكماً ولا يرتدع من حد. ولا يخشى عاقبة الليالي. ويتابع سيره. فيمر على ما وعد الله المؤمنين من نصر في الدنيا وتأييد وفي الآخرة من جنة عرضها السماوات والأرض، فلا يقف عند نصر الدنيا ولا ثواب الآخرة، ويتابع سيره.. يمر على حقوق الناس، وهي حقوق حياة كفلها الدين وكفلها القانون، فلا يردعه دين ولا قانون. ويتابع سيره.. هذا الذي تخطى في مساره حقوق العباد، ونهب مال الفقير واليتيم، واغتصب وفجر، هذا الذي لا يرتدع من قانون أو دين.. ماذا يجد بعد أن تخطى كل هذه المراحل. وافرض أنه في الدنيا كان له من السلطان ما يجعله هو القانون، ومن البطش ما يجعله هو القوة.. فهل يتفق مع عدل الله أن ينجو هذا الباغى إذا جمع إلى البغى السلطان والبطش؟ إن عدل الله يقضى حساباً إذا عز حساب الدنيا وجزاء أخروياً إذا استطاع الظالم أن يتابع ظلمه حتى يموت.. لن

يجد أمامه بعد أن تخطى كل هذه المراحل إلا النار بعد الحساب العادل يوم يقوم الناس لرب العالمين.

والله سبحانه وتعالى أنذره هذه النار وهو في الدنيا وحذره منها، ووصفها له وصفاً دقيقاً كأنه يراها، فلا يلومن بعد هذا إلا نفسه. أرأيت أن من رحمة الله بعباده أن يبصرهم بما أعد للظالمين من عذاب، وللمؤمنين من ثواب؟.

ونعود إلى الآية الكريمة لنرى فيها وصف العذاب أعادنا الله منه: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾.

أعتدنا: فعل ماضى. والفعل الماضى يفيد الحدوث أو يقيناً كأنه الحدوث وقبل أعتدنا "إننا" تأكيداً لهذا الإعداد. ونسبة الإعداد إلى الحق العادل الواحد القهار، وهي معدة للظالمين، هم الذين بدعوا بظلم أنفسهم وظلم الناس، أما الحق جل وعلا فلقد أنبأنا المصطفى ﷺ عن رب العزة في الحديث القدسى الذى يرويه عن ربه "ياعبادى إني حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا".

ووصف ربنا النار بقوله: ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ وما سرادق النار. كأنها نار من حولها سرادق من نار. هل هو دخانها؟ هل هى شعبيها.. نستحضر في هذا قول الله في وصف النار في آية أخرى: ﴿ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۖ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ۚ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ رَاسٍ كَالْقَصْرِ ۚ كَأَنَّهُ جَمَلٌ صُفْرٌ ﴾ (المرسلات: ٣٠ - ٣٤).

وكيف تكون النار: ظلاً لا ظليلاً، تتصاعد ألسنته، وترمى النار بالشرر ويختلط ظل النار بالنار ولا يدفع الظل لهاً كما يحاول الإنسان في دنياه أن يستظل من حر الشمس، ويندفع شررها قطعاً كبيرة كالحجارة الصفراء.. أو كالإبل السود (والصفر سود الإبل^(١))..

سرادقها تحمل معنى الحجزة التى تكون حول الخيمة، فليس للظالمين مخلص ولا مهرب من النار. النار تكتنفهم والدخان من حولهم.. لا فرجة حتى للنظر وليس إلا الدخان والنار وإلا حوار جاء ذكره في موضع آخر مع أهل النعيم.

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزى ٨: ٤٥٠ - ٤٥١

وأى جسم يتحمل هذه النار؟ وأى صدر يتحمل هذا الدخان؟ نار واحدة كانت برداً وسلاماً، وكان هذا مع إبراهيم أبى الأنبياء عليهم جميعاً الصلاة والسلام. أما هذه النار فالذى فيها لا يموت ولا يحيى، هى ليست كنار الدنيا الحارقة القاتلة. وأجسام الظالمين ليست كأجسامهم فى الدنيا قابلة للحريق، ولا صدورهم قابلة للاختناق. وإنما إقامة فى النار. لاهى موت يستريحون به، ولا حياة يطمئنون إليها.

ثم ذكر ربنا بعد هذا صفة ثانية للنار..

﴿ وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾.

إنهم يستغيثون من حر النار ويأتى الفعل بعد هذا مبنياً للمجهول "يُعَاثُوا" من يغيثهم؟ من يسقيهم؟ وكيف؟ وكيف نعرف والفعل مبنى للمجهول زيادة فى تصوير الهول.. الذى يُعَاثُونَ به "ماء" ولكن أى ماء؟ إنه ماء كالمهل: وتصور مصهور المعادن. تصور حمم البراكين السائلة، وقد سال فيها الصخر واندفع فوق الأرض حارقاً كل ما يجد.. هذا هو الغوث معدن مصهور.. وكيف تتحملة البطون.. إنه من بعيد بحرّه واشتعاله يشوى الوجوه.. وهل لهذه الوجوه قدرة على مزيد من تحمل الحرارة.. النار التى تكتتفهم. الدخان من حولهم. معادن من صهير المعدن يشوى الوجوه وهو يقترب منها.. ويوضح ذلك قول الله تعالى فى وصف مصدر هذا المهل ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢٠٠﴾ غَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٢٠١﴾ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٢٠٢﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آٰنِيَةٍ ﴿٢٠٣﴾ (الغاشية: ٢-٥) هذه العين الحارة هى مورد الماء الذى يردون. ثم يعقب ربنا على هذا بقوله ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ ألم يكونوا من قبل فى دنياهم ناعمين، وكانوا يستطيعون فعل الخيرات وإقام الصلاة والبر بالضعفاء وكفالة العدل. كانوا. ولكنهم عن هذا عدلوا إلى الشر والحرام. فهذا شرابهم يوم الجزاء، وساءت النار لهم منزلاً، وأهلاً لهم صحبة ورفقة. ومن تفسير (مرتفقاً) ومكاناً يتكئون عليه بالمرافق. والاتكاء راحة. ولكن أى راحة.. لاشراب ولاراحة ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

أعاذنا الله من عذابه وجعلنا من أهل رحمته وجنته.